البينة

في اقتباس العلم والحذر فيه

تصنيف

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى، فَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى.

وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ صَلَاةً وَسَلَامًا بِالْمِكْيَالِ الْأَوْفَى.

أَمَّا بَعْدُ..

فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ يَقْتَبِسُونَ الْعِلْمَ مُنْفَكِّينَ عَنْ خَبْطِهِمْ، زَائِلِينَ عَنْ خَلْطِهِمْ؛ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ، وَحُجَّةٌ مُوضِحَةٌ، تُوَجِّهُ حَائِرَهُمْ، وَتُنَبِّهُ غَافِلَهُمْ.

وَقُضِيَ لِي فِيمَا سَلَفَ تَصْدِيرُ مُقَيَّدَةٍ فِي (مَدَارِجِ الْعِلْمِ) بِعَشْرِ وَصَايَا[1]، شَرَّقَتْ وَغَرَّبَتْ مَا شَاءَ اللهُ، فَتَلَقَّفَهَا فِئَامٌ يَسْتَرْشِدُونَ، وَاسْتَفَادَ مِنْهَا أَخْيَارٌ مُرْشِدُونَ، وَامْتَدَّتْ إِلَيْهَا يَدٌ جَائِرَةٌ أَفْرَغَتْهَا فِي وِعَاءِ مَوْقِعٍ مِنْ مَوَاقِعِ الشَّبَكَةِ الْعَنْكَبُوتِيَّةِ مَنْحُولَةً لِدَعِيٍّ لَمْ يَخْتَرِعْ مَعْنًى وَلَمْ يَفْتَرِعْ مَبْنًى، فَأَهْوَتْ إِلَيْهِ يَدُ الْعَدْلِ تَهْتِكُ سِتْرَهُ، وَتَفْضَحُ سِرَّهُ، وَكَرِهْتُ لَجَّتَهُمْ، فَارْتَفَعْتُ عَنْ لُجَّتِهِمْ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ إِصَابَةُ الْأَجْرِ، لَا سِرْبَالُ الْفَخْرِ، وَانْتِحَالُ الْمَقَالِ لَا يَسُوءُ صَادِقًا طِلْبَتُهُ بَثُّ الْعِلْمِ وَهِدَايَةُ الْخَلْقِ، فَاللهُ يَغْفِرُ لِي وَلَهُ.

ثُمَّ حَسَّنَ لِي مُوَفِّقٌ سَلَّ نِصَالَهَا، وَبَوْحٍ وِصَالِهَا، تَوْسِعَةً فِي الْإِفَادَةِ، فَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ، وَحَقَّقْتُ مُؤَمَّلَهُ، فَأَبْرَزْتُ «الْبَيِّنَةُ فِي اقْتِبَاسِ الْعِلْمِ وَالْحَذْقِ فِيهِ» مِنْ خِدْرِهَا، تَنْفَعُ الْمُلْتَمِسَ، وَتَرْفَعُ الْمُقْتَبِسَ، وَتَدْفَعُ الْمُخْتَلِسَ،

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

---

(١) وبينها وبين كتابي ((تعظيم العلم)) اجتماعٌ وافتراقٌ، وتصديقٌ وإحقاقٌ؛ لاتِّحاد المَصدَر واتِّفاق المقصد.

البَيِّنَةُ الأُولَى

الْعِلْمُ صَيْدٌ وَشِرَاكُهُ النِّيَّةُ، فَمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ وَحَسُنَ قَصْدُهُ، صَادَ مِنَ الْعِلْمِ دُرَرَهُ، وَنَالَ مِنْه غُرَرَهُ، وَمَنْ فَسَدَتْ نِيَّتُهُ وَسَاءَ قَصْدُهُ لَمْ يُصِبْ مِنَ الصَّيْدِ إِلَّا أَرْذَلَهُ، مِمَّا لَا يَقْصِدُهُ صَائِدٌ، وَلَا يُبَشِّرُ بِهِ رَائِدٌ، وَمِنْ كُنُوزِ السُّنَّةِ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[1]، وَبِتَصْحِيحِ النِّيَّاتِ تُدْرَكُ الْغَايَاتُ.

وَمَدَارُ نِيَّةِ الْعِلْمِ عَلَى أَرْبَعَةِ أُمُورٍ، مَنِ اجْتَمَعَ لَهُ قَصْدُهَا كَمُلَتْ نِيَّتُهُ فِي الْعِلْمِ:

أَوَّلُهَا: رَفْعُ الْجَهْلِ عَنِ النَّفْسِ، بِتَعْرِيفِهَا طَرِيقَ الْعُبُودِيَّةِ.

وَثَانِيهَا: رَفْعُ الْجَهْلِ عَنِ الْخَلْقِ بِإِرْشَادِهِمْ إِلَى مَصَالِحِ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ.

وَثَالِثُهَا: الْعَمَلُ بِهِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ يُرادُ لِلْعَمَلِ.

وَرَابِعُهَا: إِحْيَاؤُهُ وَحِفْظُهُ مِنَ الضَّيَاعِ ، وَهَذَا الْمَعْنَى مُتَأَكِّدٌ فِي حَقِّ الْمُتَأَهِّلِ الْمُهَيَّأِ لَهُ الْقَادِرِ عَلَيْهِ.

وَإِلَيْهِنَّ أَشَرْتُ بِقَوْلِي:

وَنِيَّةٌ لِلْعِلْمِ رَفْعُ الْجَهْلِ عَمْ ... عَنْ نَفْسِهِ فَغَيْرِهِ مِنَ النَّسَمْ

وَالثَّالِثُ التَّحْصِينُ لِلْعُلُومِ مِنْ ... ضَيَاعِهَا وَعَمَلٌ بِهِ زُكِنْ

وَمَعْنَى (عَمَّ) شَمُلَ، وَ(النَّسَمُ): النُّفُوسُ، جَمْع نَسَمةٍ، وَ(زُكِنْ) أَيْ ثَبَتْ.

---

(١) أخرجه البخاري (١) ك: بدء الوحي (١) ب: كيف كان بدء الوحي إلى رَسُولِ الله ﷺ، رقم (١)، ومسلم (٣٤) ك: الإمارة (٤٥) ب: قوله ﷺ: ((إنما الأعمال بالنية))، رقم (١٩٠٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

البَيِّنَةُ الثَّانِيَةُ

الْعَزْمُ مَرْكَبُ الصَّادِقِينَ، وَمَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ عَزِيمَةٌ لَمْ يَفْرَحْ بِغَنِيمَةٍ، فَإِنَّ الْعَزَائِمَ جَلَّابَةُ الْغَنَائِمِ، فَاعْزِمْ تَغْنَمْ، وَإِيَّاكَ وَأَمَانِيَّ[1] البَطَّالِينَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «الْفَوَائِدِ»[2]: (إِذَا طَلَعَ نَجْمُ الهِمَّةِ فِي ظَلَامِ لَيْلِ الْبَطَالَةِ، وَرَدِفَهُ قَمَرُ الْعَزِيمَةِ، أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا).

وَإِنَّمَا يَحُلُّ عُقْدَةَ الْعَزْمِ ثَلَاثُ أَيْدٍ:

أَوَّلُهَا: إِلْفُ الْعَوَائِدِ، مِمَّا جَرَى عَلَيْهِ الْخَلْقُ فِي رُسُومِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ.

وَثَانِيهَا: وَصْلُ الْعَلَائِقِ، وَهِيَ تَعَلُّقَاتِ الْقَلْبِ وَصِلَاتُهُ.

وَثَالِثُهَا: قَبُولُ الْعَوَائِقِ، مِنَ الْحَوَادِثِ الْقَدَرِيَّةِ الَّتِي تَكْتَسِحُ الْعَبْدُ مِنْ قِبَلِ غَيْرِهِ.

فَإِنَّ لَهُنَّ سُلْطَانًا عَلَى النَّفْسِ يَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ مَطْلُوبِهِ، وَيُقْعِدُهُ عَنْ مَرْغُوبِهِ، لَا يُدْفَعُ إِلَّا بِحَسْمِ مَادَّتِهِنَّ.

فَالْعَوَائِدُ تُحْسَمُ بِالْهَجْرِ، وَالْعَلَائِقُ تُحْسَمُ بِالْقَطْعِ، وَالْعَوَائِقِ تُحْسَمُ بِالرَّفْضِ، فَمَنْ هَجَرَ الْعَوَائِدَ وَقَطَعَ الْعَلَائِقَ وَرَفَضَ الْعَوَائِقَ فَهُوَ سُلْطَانُ نَفْسِهِ. وَحُسَامُ النُّفُوسِ أَجَلُّ مِنْ حُسَامِ الرُّؤُوسِ.

وَتَمُدُّ قُوَّةَ الْعَزْمِ ثَلَاثَةُ مَوَارِدَ:

أَوَّلُهَا: مَوْرِدُ الْحِرْصِ عَلَى مَا يَنْفَعُ.

وَثَانِيهَا: مَوْرِدُ الاسْتِعَانَةِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَثَالِثُهَا: مَوْرِدُ خَلْعِ ثَوْبِ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ.

وَهُنَّ فِي قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجِزْ[3]»[4]، فَجُمَلُهُ الثَّلَاثُ مَنَابِعُ الْمَوَارِدِ، وَاحِدًا وَاحِدًا؛ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ.

وَمِمَّا يُحَرِّكُ الْعَزَائِمَ إِدْمَانُ مُطَالَعَةِ سِيَرِ الْمُنْعِمِ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، فَالاعْتِبَارُ بِحَالِهِمْ، وَتَعَرُّفُ مَصَاعِدِ هِمَمِهِمْ يُثَوِّرُ عَزْمَتَكَ، وَيُقَوِّي شَكِيمَتَكَ، فَلَا تَحْرِمْ نَفْسَكَ مِنْ آثَارِهِمْ، وَطَالِعْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنْ سِيَرِهِمْ.

---

(١) أماني بالتخفيف لغة قليلة، والكثيرة أمانيّ بالتشديد.

(١) ص ٥١.

(٣) تعجَز، صحيحة لٰكِن الأفصح تعجِز.

(١) أخرجه مسلم في (٤٧) ك: القدر، (٨) ب: في الأمر بالقوَّة وترك العَجْز، رقم (٦٩٤٥)، من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

البَيِّنَةُ الثَّالِثَةُ

التَّبَحُّرُ فِي الْعِلْمِ فَضِيلَةٌ، وَالْـمُشَارَكَةُ فِي كُلِّ فَنٍّ غَنِيمَةٌ.

قَالَ يَحْيَى بْنُ مُجَاهِدٍ رَحمه الله تعالى: (كُنْتُ آخُذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ طَرَفًا، فَإِنَّ سَمَاعَ الْإِنْسَانِ قَوْمًا يَتَحَدَّثُونَ، وَهُوَ لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ غُمَّةٌ عَظِيمَةٌ).

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ حَزْمٍ كَتِيبَةُ الْأَنْدَلُسِيِّينَ – عَقِبَ ذِكْرِهِ لَهُ –: (وَلَقَدْ صَدَقَ)[1].

وَمَا أَحْسَنَ عِنْدَ أَهْلِ الذَّوْقِ وَالْوَجْدِ مِنْ طُلَّابِ الْـمَعَانِي قَوْلُ ابْنِ الْوَرْدِيِّ:

مِـنْ كُـلِّ فَـنٍّ خُـذْ وَلَا تَجْهَـلْ بِـهِ ... فَالْـحُرُّ مُطَّلِـعٌ عَـلَى الْأَسْرَارِ

وَيَقْبُحُ بِالْـمَرْءِ أَنْ تَكُونَ لَهُ قُدْرَةٌ وَلَيْسَتْ لَهُ هِمَّةٌ، فَيَقْعُدُ عَنِ اسْتِنْبَاطِ عِلْمٍ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ، وَيَتَبَاعَدُ عَنْهُ مَعَ قُرْبِ طَرِيقِ وُصُولِهِ إِلَيْهِ.

وَهٰذَا ضَرْبٌ مِنَ الْـحِرْمَانِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ خَيْرٌ، وَإِنَّ الْـمُؤْمِنَ لَا يَشْبَعُ مِنَ الْـخَيْرِ حَتَّى يَكُونَ مُنْتَهَاهُ إِلَى أَصْلِهِ الزَّخَّارُ وَمَنَازِلِهِ الْأُولَى.

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا ... مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْـمُخَيَّمُ

وَمِنْ خَصَائِصِ عُلُومِ الدِّيَانَةِ ارْتِبَاطُ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ فَمَحِلُّهَا إِلَى النُّورَيْنِ: الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، وَهُمَا وَحْيٌ مِنَ اللهِ، فَإِذَا كَانَ الْـمَنْبَعُ وَاحِدًا كَانَ الارْتِبَاطُ وَاضِحًا.

قَالَ الزَّبِيدِيُّ رحمه الله فِي «أَلْفِيَّةِ السَّنَدِ»:

فَإِنَّ أَنْوَاعَ الْعُلُومِ تَخْتَلِطْ ... وَبَعْضُهَا بِشَرْطِ بَعْضٍ مُرْتَبِطْ

وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَهَا بِالاقْتِصَارِ عَلَى فَنٍّ وَاحِدٍ دُونَ تَحْصِيلِ أُصُولِ بَقِيَّةِ الْفُنُونِ: مِنْ آثَارِ الاقْتِدَاءِ بِعُلُومِ أَهْلِ الدُّنْيَا الَّتِي سَرَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْـمُشْتَغِلِينَ بِعُلُومِ الشَّرِيعَةِ.

وَثُبُوتُ الْقَدَمِ عَلَى الصِّرَاطِ الْأَتَمِّ هُوَ فِي تَحْصِيلِ أُصُولِ الْفُنُونِ دُونَ اتِّسَاعٍ فِيهَا، ثُمَّ التَّشَاغُلُ بِمَا شَاءَ الْعَبْدُ مِنْهَا، مِمَّا وَجَدَ قُوَّتَهُ فِيهِ، وَقُدْرَتَهُ عَلَيْهِ.

أَمَّا بُلُوغُ الْغَايَةِ وَحُصُولُ الْكِفَايَةِ فِي عُلُومِ الدِّيَانَةِ جَمِيعًا فَلَيْسَ مُتَهَيِّئًا لِكُلِّ أَحَدٍ، بَلْ يَخْتَصُّ بِهِ اللهُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، وَمُلَاحَظَةُ الاخْتِصَاصِ تُهَوِّنُ الْـمُغَامَرَةَ فِيهِ وَتَجَشُّمَ الْعَنَاءِ حَتَّى يَنَالَ الْـمُنَى.

لَأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ الْـمُنَى ... فَـمَا انْقَادَتِ الْآمَالُ إِلَّا لِصَابِرِ

---

(١) انظر: رسالة ((مراتب العلوم)) المسرودة في مجموع رسائل ابن حزمٍ ٤/ ٧٢.

البَيِّنَةُ الرَّابِعَةُ

يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَمُّ الطَّالِبِ الْأَعْظَمِ تَحْصِيلَ عُلُومَ الْـمَقَاصِدِ، وَالتَّفَقُّهِ فِي الْوَحْيَيْنِ، فَلَا يَشْتَغِلُ بِغَيْرِهَا إِلَّا بِقَـدْرِ مَا يَقِفُ بِهِ عَلَى مَقَاصِدِ الْعِلْمِ الْـمَنْظُورِ فِيهِ، دُونَ إِدَامَةِ نَظَرٍ تُبَلِّغُهُ غَوْرَهُ، فَـإِنَّ الْعُلُـومَ الْآلِيَّـةَ كَثِـيرَةُ الْعَـدَدِ، ثَقِيلَـةُ الْعُدَدِ، وَهِيَ لِلْعِلْمِ بِمَنْزِلَةِ الْـمِلْحِ للطَّعَامِ إِنْ زَادَ سَاءَ وَإِنْ نَقَصَ سَاءَ.

قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ رحمه الله فِي «الْـمُقَدِّمَةِ»[1]: (اعْلَمْ أَنَّ الْعُلُومَ الْـمُتَعَارَفَةَ بَيْنَ أَهْلِ الْعُمْرَانِ عَلَى صِنْفَيْنِ:

- عُلُومٌ مَقْصُودَةٌ بِالذَّاتِ؛ كَالشَّرْعِيَّاتِ،
- وَعُلُومٌ هِيَ آلَةٌ وَوَسِيلَةٌ لِـهٰذِهِ الْعُلُومِ.

فَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ مَقَاصِدُ فَلَا حَرَجَ فِي تَوْسِعَةِ الْكَلَامِ فِيهَا، وَتَفْرِيعِ الْـمَسَائِلِ، وَاسْتِكْشَافِ الْأَدِلَّةِ وَالْأَنْظَارِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ طَالِبَهَا تَمَكُّنًا مِنْ مَلَكَتِهِ، وَإِيضَاحًا لِـمَعَانِيهَا الْـمَقْصُودَةِ.

وَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ آلَةٌ لِغَيْرِهَا – مِثْلُ الْعَرَبِيَّةِ وَالْـمَنْطِقِ وَأَمْثَالُهَا – فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ فِيهَا إِلَّا مِـنْ حَيْـثُ هِـيَ آلَةٌ لِذَلِكَ الْغَيْرِ فَقَطْ، وَلَا يُوَسَّعُ فِيهَا الْكَلَامُ وَلَا تُفَرَّعُ الْـمَسَائِلُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُخْرِجٌ لَهَا عَنِ الْـمَقْصُودِ؛ إِذْ الْـمَقْصُودِ مِنْهَا مَا هِيَ آلَةٌ لَهُ لَا غَيْرَ، فَكُلَّمَا خَرَجَتْ عَنْ ذَلِكَ خَرَجَتْ عَنِ الْـمَقْصُودِ، وَصَارَ الاشْتِغَالُ بِهَا لَغْوًا، مَـعَ مَـا فِيـهِ مِنْ صُعُوبَةِ الْـحُصُولِ عَلَى مَلَكَتِهَا بِطُولِهَا وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا، وَرُبَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ عَائِقًا عَنْ تَحْصِيلِ الْعُلُـومِ الْـمَقْصُودَةِ بِالذَّاتِ؛ لِطُولِ وَسَائِلِهَا، مَعَ أَنَّ شَأْنَهَا أَهَمُّ، وَالْعُمْرُ يَقْصُـرُ عَنْ تَحْصِيلِ الْجَمِيعِ عَلَى هٰذِهِ الصُّورَةِ).ا.هـ

وَلَا يَتَأَتَّى لِلطَّالِبِ الظَّفَرُ بِمَا يُؤَمِّلُهُ مِنْ عُلُومِ الْـمَقَاصِدِ وَالْوَسَائِلِ حَتَّى يَكُونُ:

- نَهَّازًا لِلْفُرَصِ.
- مُبْتَدِئًا لِلْعِلْمِ مِنْ أَوَّلِهِ.
- آتِيًا لَهُ مِنْ مَدْخَلِهِ.
- مُنْصَرِفًا عَنِ التَّشَاغُلِ بِطَلَبِ مَا لَا يَضُرُّ جَهْلِهِ.
- مُلِحًّا فِي ابْتِغَاءِ دَرْكِ مَا اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ، غَيْرَ مُهْمِلٍ لَهُ.

قَالَ الْـمَاوَرْدِيُّ رحمه الله فِي «أَدَبِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ»[2]: (فَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَلَا يَنِيَ فِي طَلَبِهِ، وَيَنْتَهِزَ الْفُرْصَةَ بِـهِ، فَرُبَّمَا شَحَّ الزَّمَانُ بِمَا سَمَحَ، وَضَنَّ بِمَا مَنَحَ.

---

(١) ص ٣٤٣.

(١) ص٧٦.

وَيَبْتَدِئُ مِنَ الْعِلْمِ بِأَوَّلِهِ، وَيَأْتِيهِ مِنْ مَدْخَلِهِ، وِلَا يَتَشَاغَلُ بِطَلَبِ مَا لَا يَضُرُّ جَهْلُهُ، فَيَمْنَعُهُ ذَلِكَ مِنْ إِدْرَاكِ مَا لَا يَسَعُهُ جَهْلُهُ، فَإِنَّ لِكُلِّ عِلْمٍ فُضُولًا مُذْهِلَةً، وَشُذُورًا مُشْغِلَةً، إِنْ صَرَفَ إِلَيْهَا نَفْسَهُ قَطَعَتْهُ عَمَّا هُوَ أَهَمُّ مِنْهَا).ا.هـ

ثُمَّ قَالَ:

(وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَدْعُوَهُ ذَلِكَ إِلَى تَرْكِ مَا اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ، إِشْعَارًا لِنَفْسِهِ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ فُضُولِ عِلْمِهِ، وَإِعْذَارًا لَهَا فِي تَرْكِ الاشْتِغَالِ بِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَطِيَّةُ النَّوْكَى[1]، وَعُذْرُ الْمُقَصِّرِينَ.

وَمَنْ أَخَذَ مِنَ الْعِلْمِ مَا تَسَهَّلَ، وَتَرَكَ مِنْهُ مَا تَعَذَّرَ، كَانَ كَالْقَنَّاصِ: إِذَا امْتَنَعَ عَلَيْهِ الصَّيْدُ تَرَكَهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَّا خَائِبًا؛ إِذْ لَيْسَ يَرى الصَّيْدَ إِلَّا مُمْتَنِعًا؛ كَذَلِكَ الْعِلْمُ: طَلَبُهُ صَعْبٌ عَلَى مَنْ جَهِلَهُ، سَهْلٌ عَلَى مَنْ عَلِمَهُ؛ لِأَنَّ مَعَانِيهِ الَّتِي يُتَوَصَّلُ إِلَيْهَا مُسْتَوْدَعَةٌ فِي كَلَامٍ مُتَرْجِمٍ عَنْهَا، وَكُلُّ كَلَامٍ مُسْتَعْمَلٍ فَهُوَ يَجْمَعُ لَفْظًا مَسْمُوعًا، وَمَعْنًى مَفْهُومًا؛ فَاللَّفْظُ كَلَامٌ يُعْقَلُ بِالسَّمْعِ، وَالْمَعْنَى تَحْتَ اللَّفْظِ يُفْهَمُ بِالْقَلْبِ)[2].ا.هـ

---

(١) أي الحمقى.

(٢) ((أدب الدُّنيا والدِّين)) ص٧٧.

البَيِّنَةُ الْخَامِسَةُ

مِمَّا يُعِينُ الطَّالِبَ عَلَى الاتِّصَافِ بِمَا سَبَقَ جَمْعُ نَفْسَهُ عَلَى تَلَقِّي الأُصُولِ تَحَفُّظًا وَتَفَهُّمًا، فَإِنَّ إِفْرَاغَ زَهْرَةِ الْعُمْرِ وَقُوَّةِ النَّفْسِ فِي طِلَابِهَا أَحْسَنُ الانْتِهَازُ لِلْفُرْصَةِ وَأَكْمَلُهُ، وَبِهَا ابْتِدَاءُ الْعُلُومِ مِنْ أَوَائِلِهَا، وَإِتْيَانُهَا مِنْ مَدَاخِلِهَا.

وَهِيَ سُلَّمُ الارْتِقَاءِ إِلَى الحِـذْقِ فِي الْعِلْمِ، وَتَحْصِيلِ مَلَكَةِ الْفَنِّ، فَإِنَّ الحِـذْقَ يُدْرَكُ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

أَوَّلُهَا: الْإِحَاطَةُ بِمَبَادِئِ الْعِلْمِ وَقَوَاعِدِهِ.

ثَانِيهَا: الْوُقُوفُ عَلَى مَسَائِلِهِ.

ثَالِثُهَا: اسْتِنْبَاطُ فُرُوعِهِ مِنْ أُصُولِهِ.

وَأَيْسَرُ سَبِيلٍ لِلتَّحَقُّقِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ: بَقْرُ الْأُصُولِ، وَاسْتِبْطَانُ مَنْطُوقِهَا وَمَفْهُومِهَـا، حَتَّـى يَمْتَلِـئَ الْقَلْـبُ بِحَقَائِقِهَا، وَتَثْبُتَ فِي النَّفْسِ مَقَاصِدُهَا، فَيَصِيرُ الْـمُمَارِسُ لَهَا ذَا حِـذْقٍ وَبَصِيرَةٍ بِهَا.

قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ فِي «مُقَدِّمَتِهِ»[1] بَعْدَ كَلَامٍ سَبَقَ: (وَذَلِكَ أَنَّ الحِذْقَ فِي الْعِلْمِ وَالتَّفَنُّنَ فِيهِ وَالاسْـتِيلَاءَ عَلَيْـهِ، إِنَّـمَا هُوَ بِحُصُولِ مَلَكَةٍ فِي الْإِحَاطَةِ بِمَبَادِئِهِ وَقَوَاعِدِهِ، وَالْوُقُوفِ عَلَى مَسَـائِلِهِ، وَاسْـتِنْبَاطِ فُرُوعِـهِ مِـنْ أُصُـولِهِ، وَمَـا لَمْ تَحْصُلْ هَذِهِ الْـمَلَكَةُ لَمْ يَكُنِ الحِذْقُ فِي ذَلِكَ الْفَنِّ الْـمُتَنَاوِلِ حَاصِلًا.

وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ غَيْرُ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ؛ لِأَنَّا نَجِدُ فَهْمَ الْـمَسْأَلَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْفَنِّ الْوَاحِدِ وَوَعِيَهَا مُشْتَرَكًا بَيْنَ مَنْ شَدَا فِي ذَلِكَ الْفَنِّ[2]، وَبَيْنَ مَنْ هُوَ مُبْتَدِئٌ فِيهِ، وَبَيْنَ الْعَامِّيِّ الَّذِي لَـمْ يُحَصِّلْ عِلْمًا، وَبَيْنَ الْعَالِـمِ النِّحْرِيرِ، وَالْـمَلَكَةُ إِنَّـمَا هِيَ لِلعَالَـمِ أَوْ الشَّادِي فِي الفُنُونِ دُونَ مَنْ سِوَاهُمَا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْـمَلَكَةُ غَيْرُ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ).ا.هـ

---

(١) ص٣٤١-٣٤٢.

(١) الشَّدوُ: كلُّ قليلٍ من كثيرٍ، يُقالُ: شدا من العلم شَدْوًا فهو شادي؛ إذا أحسن منه حظًّا.

البَيِّنَةُ السَّادِسَةُ

إِنَّ الْوُصُولَ إِلَى الحَذْقِ فِي الْعِلْمِ لَا يَتَهَيَّأُ بِأَخْذِهِ دُفْعَةً وَاحِدَةً، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ تَدْرِيجِ النَّفْسِ فِيهِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيَتَحَقَّقُ هَذَا بِتَكْرَارِ دِرَاسَةِ الْفَنِّ فِي عِدَّةِ أُصُولٍ لَهُ، تَنْتَظِمُ ارْتِفَاعًا مِنَ الْإِيجَازِ إِلَى التَّوَسُّطِ ثُمَّ الطُّولِ، وَقَدْ يَكُونُ لِكُلِّ مَرْتَبَةٍ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَقَدْ تَضُمُّ أَصْلَيْنِ اثْنَيْنِ مَعًا.

وَتَخْتَصُّ الأُصُولُ الْمُوجَزَةُ بِكَوْنِهَا جَامِعَةً لِلْمَسَائِلِ الْكِبَارِ فِي كُلِّ بَابٍ؛ ثُمَّ تَتَزَايَدُ مَسَائِلُهُ فِي الْأُصُولِ الْمُتَوَسِّطَةِ وَالْمُطَوَّلَةِ.

وَمِفْتَاحُ الْانْتِفَاعِ بِكُلٍّ هُوَ أَنْ يَتَلَقَّى الطَّالِبُ الْأُصُولَ الْمُوجَزَةَ عَلَى سَبِيلِ الإِجْمَالِ؛ لِيَتَهَيَّأَ بِذَلِكَ لَهُ فَهْمُ الْفَنِّ وَتَحْصِيلُ مَسَائِلِهِ.

وَيَتَلَقَّى بَعْدَهَا الأُصُولَ الْمُتَوَسِّطَةَ مُسْتَوْفَاةَ الشَّرْحِ وَالْبَيَانِ، مَعَ ذِكْرِ مَا هُنَالِكَ مِنَ الْخِلَافِ وَوَجْهِهِ، فَتَقْوَى بِذَلِكَ مَلَكَتُهُ فِي الْفَنِّ.

ثُمَّ يَتَلَقَّى بَعْدَهَا الْأُصُولَ الْمُطَوَّلَةَ؛ مُسْتَكْمِلًا شَرْحَهَا وَبَيَانَهَا وَمَعْرِفَةَ خِلَافِيَّاتِهَا، وَيُزَادُ لَهُ حَلُّ الْمُشْكِلَاتِ، وَتَوْضِيحُ الْمُبْهَمَاتِ، وَفَتْحُ الْمُقْفَلَاتِ، فَيَصِلُ بِهَذِهِ الْعُدَّةِ إِلَى مَلَكَةِ الْفَنِّ.

وَالْمُرْشِدِ إِلَى هَذَا كُلِّهِ هُوَ الدَّرَّاكَةُ الْبَصِيرُ ابْنُ خَلْدُونَ إِذْ يَقُولُ فِي «مُقَدِّمَتِهِ»[1]:

(اعْلَمْ أَنَّ تَلْقِينَ الْعُلُومِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ إِنَّمَا يَكُونُ مُفِيدًا إِذَا كَانَ عَلَى التَّدْرِيجِ: شَيْئًا فَشَيْئًا وَقَلِيلًا قَلِيلًا، يُلْقِي عَلَيْهِ أَوَّلًا مَسَائِلَ مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنَ الْفَنِّ هِيَ أُصُولُ ذَلِكَ الْبَابُ، وَيُقَرِّبُ لَهُ فِي شَرْحِهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ، وَيُرَاعِي فِي ذَلِكَ قُوَّةَ عَقْلِهِ وَاسْتِعْدَادَهُ لِقَبُولِ مَا يُورِدُ عَلَيْهِ، حَتَّى يَنْتَهِي إِلَى آخِرِ الْفَنِّ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ مَلَكَةٌ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ؛ إِلَّا أَنَّهَا جُزْئِيَّةٌ وَضَعِيفَةٌ، وَغَايَتُهَا أَنَّهَا هَيَّأَتْهُ لِفَهْمِ الْفَنِّ وَتَحْصِيلِ مَسَائِلِهِ.

ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ إِلَى الْفَنِّ ثَانِيَةً؛ فَيَرْفَعُهُ فِي التَّلْقِينِ عَنْ تِلْكَ الرُّتْبَةِ إِلَى أَعْلَى مِنْهَا، وَيَسْتَوْفِي الشَّرْحَ وَالْبَيَانَ، وَيَخْرُجُ عَنِ الْإِجْمَالِ، وَيَذْكُرُ لَهُ مَا هُنَالِكَ مِنَ الْخِلَافِ وَوَجْهَهُ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِي إِلَى آخِرِ الْفَنِّ فَتَجُودَ مَلَكَتُهُ.

ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ وَقَدْ شَدَا؛ فَلَا يَتْرُكُ عَوِيصًا وَلَا مُبْهَمًا وَلَا مُنْغَلِقًا إِلَّا وَضَّحَهُ وَفَتَحَ لَهُ مُقْفَلَهُ، فَيَخْلُصُ مِنَ الْفَنِّ وَقَدْ اسْتَوْلَى عَلَى مَلَكَتِهِ.

هَذَا وَجْهُ التَّعْلِيمِ الْمُفِيدِ، وَهُوَ كَمَا رَأَيْتَ إِنَّمَا يَحْصُلُ فِي ثَلَاثِ تَكْرَارَاتٍ، وَقَدْ يَحْصُلُ لِلْبَعْضِ فِي أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا يُخْلَقُ لَهُ وَيَتَيَسَّرُ عَلَيْهِ). انْتَهَى كَلَامُهُ.

وَهُوَ شَبِيهٌ بِاجْتِمَاعِ الْخَلْقِ عَلَى تَرْتِيبِ الدِّرَاسَةِ النِّظَامِيَّةِ فِيمَا دُونَ الْجَامِعَةِ = فِي مَرَاحِلَ ثَلَاثٍ: الابْتِدَائِيَّةِ وَالْمُتَوَسِّطَةِ وَالثَّانَوِيَّةِ.

---

(١) ص ٤٥٨.

البَيِّنَةُ السَّابِعَةُ

تُؤْخَذُ أُصُولُ الْفُنُونِ حِفْظًا وَفَهْمًا عَنْ شَيْخٍ عَارِفٍ مُتَّصِفٍ بِوَصْفَيْنِ اثْنَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الْأَهْلِيَّةُ فِي الْفَنِّ، بِتَمَكُّنِهِ فِي النَّفْسِ.

وَالْآخَرُ: النُّصْحُ وَحُسْنِ الْـمَعْرِفَةِ بِطُرُقِ التَّعْلِيمِ.

فَإِنَّ الْعِلْمَ خِزَانَةُ الشَّرِيعَةِ، وَمَفَاتِيحُ الخِزَانَةِ بِأَيْدِي الْعُلَمَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَنْ لَـمْ يَفْتَحْ لَهُ الْـخَازِنُ كَيْف يَنَالُ مُبْتَغَاهُ.

وَدَلَائِلُ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ مُتَوَاطِئَةٌ عَلَى تَقْرِيرِ هَذَا الْـمَعْنَى، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدْرِكُ الْعِلْمَ دُونَ شَيْخٍ مُرْشِدٍ فَلَا يَتَعَنَّ.

وَالشُّيُوخُ لَـهُمْ دَرَجَاتٌ وَمَرَاتِبُ يَتَفَاضَلُونَ فِيهَا، وَالَّذِي تَنْبَغِي رِعَايَتُهُ فِيهِمْ هُـوَ الْوَصْـفَانِ الْـمَذْكُورَانِ آنِفًا، فَمَنْ اجْتَمَعَا فِيهِ مِنَ الشُّيُوخِ فَهُوَ أَوْلَى بِالْأَخْذِ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ أَعْلَمَ مِنْهُ.

فَمَنْ لَـمْ يَكُنْ نَاصِحًا عَارِفًا بِطُرُقِ التَّعْلِيمِ أَضَرَّ بِالْـمُتَعَلِّمِينَ وَأَوْرَدَهُمْ مَوَارِدَ الْأَذَى.

فَاحْرِصْ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَ وَصْفُهُ، فَإِنْ لَـمْ يَتَيَسَّرْ مِثْلُهُ أَوْ مَنْ يُقَارِبُهُ مِنَ الشُّيُوخِ، وَفُقِدَ الشَّـيْخُ الْـمُعَلِّمُ فِي بَلَـدٍ أَوْ زَمَنٍ، أَوْ شَقَّ الْوُصُولُ إِلَيْهِ، أَمْكَنَ سُلُوكُ أَحَدِ الطُّرُقِ الْآتِيَةِ:

الْأَوَّلُ: اسْتِحْضَارُ شَرْحٍ مُعْتَمَدٍ لِلْأَصْلِ الْـمَقْصُودِ، وَتَفَهُّمُ مَعَانِيهِ، مَعَ مُرَاجَعَةِ شَيْخٍ عَارِفٍ بِالْفَنِّ فِـيمَا أَشْـكَلَ مِنْهُ.

الثَّانِي: الزِّيَادَةُ عَلَى شَرْحٍ وَاحِدٍ مَعَ سُلُوكِ مَا مَضَى، وَمَحَلُّ هَذَا إِذَا كَانَـتْ شُرُوحُ الْأَصْـلِ تَقْصُـرُ عَـنْ تَوْضِـيحِ مَعَانِيهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ ضَمِّ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ، أَوْ كَانَ الطَّالِبُ جَيِّدَ الْفَهْمِ قَوِيَّ الْعَقْلِ.

الثَّالِثُ: الزِّيَادَةُ عَلَى الْـمَرْتَبَةِ السَّابِقَةِ بِمُطَالَعَةِ مُدَوَّنَاتِ الْفَنِّ الْـمُعْتَمَدَةِ، وَلَا يَصْلُحُ هَذَا الطَّرِيـقُ إِلَّا إِذَا كَانَـتْ الشُّرُوحُ عَلَى الْحَالِ الْـمَذْكُورَةِ سَابِقًا، وَالطَّالِبُ فَوْقَ مَا تَقَدَّمَ.

وَكَمَا عَرَفْتَ فَإِنَّ اخْتِيَارَ طَرِيقٍ دُونَ آخَرَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ قُوَّةِ الْفَهْمِ، وَمَحَلِّ الْفَنِّ الْـمَقْصُودِ مِنَ الْعُلُومِ، وَمَنْزِلَـةِ الْأَصْلِ الْـمُوصِلِ إِلَى فَهْمِهِ بَيْنَ كُتُبِهِ.

وَمِنْ أُصُولِ الْمَلَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ مَا يُمْكِنُ تَحْصِيلُهُ دُونَ الحَاجَـةِ إِلَى عَرْضِـهِ عَـلَى شَـيْخٍ – مَـعَ كَـوْنِ ذَلِـكَ أَكْمَـلَ –؛ كَـ «الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ» – مَثَلًا –، لَكِنَّ هَذَا الضَّرْبَ مِنَ الْأُصُـولِ لَا تَحْسُـنُ مُطَالَعَتِـهِ إِلَّا بَعْـدَ التَّضَـلُّعِ مِـنْ مُهِـمَّاتِ الْعُلُومِ لِتَعْظُمَ مَنْفَعَتُهُ، وَقَدْ يَحْتَاجُ الطَّالِبُ إِلَى عَرْضِ شَيْءٍ مِنْهُ عَلَى شَيْخٍ يَكْشِفُ مَعْنَاهُ وَيُوَضِّحُ مَغْزَاهُ.

هَذَا كُلُّهُ حَظُّ الطَّالِبِ مِنْ صِنَاعَةِ الْفَهْمِ عِنْدَ فَقْدِ الشَّيْخِ، أَمَّا صِنَاعَةُ الْحِفْظِ فَلَهُ أَنْ يَعْـرِضَ مَحْفُوظَـهُ مِـنْ نُسْـخَةٍ مُصَحَّحَةٍ لِلْأَصْلِ عَلَى قَرِينٍ لَهُ ذِي مَعْرِفَةٍ بِالْفَنِّ، فَإِنْ عُدِمَ الْقَرِينُ الْـمَوْصُوفُ قَصَـدَ غَـيْرَهُ، مَـعَ الالْتِـزَامِ بِنُسَـخِ الْأُصُولِ المتقنة الموثوقِ بِهَا.

فَإِنْ لَـمْ يَجِدْ فَلْيَرْتَحِلْ مِنْ بَلَدِهِ فَإِنَّ الْعِلْمَ لَا يَنْعَشُ فِيهَا، وَلْيَطْلُبْ بَلَدًا يَجِدُ فِيهِ بُغْيَتَهُ، وَإِلَّا بَقِيَ فِي ظُلْمَةِ الْـجَهْل وَالْـحَيْرَةِ.

البَيِّنَةُ الثَّامِنَةُ

مِنَ الْقَوَاعِدِ الْأُصُولِ فِي إِدْرَاكِ الْعِلْمِ الْـمَأْمُولِ: تَقْلِيلُ الدُّرُوسِ وَإِحْكَامُ الْـمَدْرُوسِ.

وَعُرْوَةُ الْإِحْكَامِ الْوُثْقَى هِيَ مُلَازَمَةُ التَّكْرَارِ للدَّرْسِ، وَالْـحِرْصُ عَلَى مُذَاكَرَةِ الْأَقْرَانِ، فَفِي الْـمُذَاكَرَةِ إِحْيَاءُ الذَّاكِرَةِ، وَالْعِلْمُ غَرْسُ الْقَلْبِ، وَالْغَرْسُ بِلَا سُقْيَا يَمُوتُ، وَسُقْيَا الْعِلْمِ مُذَاكَرَتُهُ.

وَمِنْ بَدَائِعِ الْأَلْفَاظِ الْـمُسْتَجَادَةِ مِنْ قَرَائِحِ الْـحُفَّاظِ قَوْلِ أَبِي الحَجَّاجِ المِزِّيِّ الْـحَافِظُ رحمه الله:

مَنْ حَازَ الْعِلْمَ وَذَاكَرَهُ حَسُنَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتُهْ
فَأَدِمْ لِلْعِلْمِ مُذَاكَرَةً فَحَيَاةُ الْعِلْمِ مُذَاكَرَتُهْ[1]

وَعَاقِبَةُ تَرْكُ الْـمُذَاكِرَةُ فَقْدُ الْعِلْمُ.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ رحمه الله: (إِنَّمَا يُذهِبُ الْعِلْمَ النِّسْيَانُ، وَتَرْكُ الْـمُذَاكَرَةِ)[2].

وَتَرْكُ الاسْتِذْكَارِ بَعْدَ التَّحَفُّظِ وَالتَّفَهُّمِ يَضِيعُ بِهِ زَمَنٌ طَوِيلٌ فِي ابْتِغَاءِ اسْتِرْجَاعِ مَفْهُومٍ ذَهَبَتْ مَعَانِيهِ، أَوْ مَحْفُوظٍ نُسِيَتْ مَبَانِيهِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[3] عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ الْـمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ».

قَالَ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ رحمه الله فِي كِتَابِهِ «التَّمْهِيدُ»[4] يُبَيِّنُ مَعْنَاهُ: (وَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ الْـمُيَسَّرُ لِلذِّكْرِ كَالإِبِلِ الْـمُعَقَّلَةِ، مَنْ تَعَاهَدَهَا أَمْسَكَهَا، فَكَيْفَ بِسَائِرِ الْعُلُومِ؟!).

---

(١) رواه الثَّعالبيُّ في ((منتخب الأسانيد)) ص ١٣٠ بإسناده إليه، وكذلك الحسيني في ((كفاية الرَّوي والسَّامع)) ص ١٣٤ من مختصره المذكور في الأنوار الجليَّة للطَّباخ، وعنده: (صلُحت) موضعَ (حسُنت)، وبها ذكره السَّخاويُّ في ((فتح المغيث)) ٣/ ٣١٨، دون عزوٍ، وبالجهل بقائله اشتُهر، فاستفد معرفةَ قائلَه غنيمةً باردةً.

(٢) أخرجه ابن عبد البرِّ في ((جامع بيان العلم وفضله)) ١/ ٢١٣، والخطيب في ((الجامع)) رقم (٩٤٩).

(١) أخرجه البخاري في (٧٠) ك: فضائل القرآن، (٢٣) ب: استذكار القرآن وتعاهده، رقم (٥٠٣١)، ومسلم في (٧) ك: صلاة المسافرين، (٣٣) ب: الأمر بتعهُّد القرآن ، رقم (١٨٧٥).

(٢) ٣/ ٢٠٢.

البَيِّنَةُ التَّاسِعَةُ

فِي التَّأَنِّي نَيْلُ بُغْيَةُ الْـمُتَمَنِّي، وَالثَّبَاتُ نَبَاتٌ، وَإِنَّمَا يُجْمَعُ الْعِلْمُ بِطُولِ الْـمُدَّةِ وَتَجْوِيدُ العُدَّةِ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ يُوصِي صَاحِبَهُ يُونُسَ بْنَ يَزِيدَ الْأَيْلِيَّ:

(يَا يُونُسُ لَا تُكَابِرَ الْعِلْمَ، فَإِنَّ الْعِلْمَ أَوْدِيَةٌ، فَأَيَّهَا أَخَذْتَ فِيهِ قَطَعَ بِكَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَهُ، وَلَكِنْ خُذْهُ مَعَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي، وَلَا تَأْخُذِ الْعِلْمَ جُمْلَةً، فَإِنَّ مَنْ رَامَ أَخْذَهُ جُمْلَةً ذَهَبَ عَنْهُ جُمْلَةً، وَلَكِنِ الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ مَعَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ)[1].

فَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ فِي أَيَّامٍ وَلَيَالٍ فَقَدْ طَلَبَ الْـمُحَالَ، وَمَنْ حَشَا قَلْبَهُ بِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا سَالَ وَادِيهِ وَأَرْوَى قَاصِدِيهِ، وَنِهَايَةُ الْعَجُولِ تَشَتُّتٌ وَأُفُولٌ.

قَالَ الْـخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ رحمه الله فِي «الْفَقِيهِ وَالْـمُتَفَقِّهِ»[2]: (اعْلَمْ أَنَّ الْقَلْبَ جَارِحَةٌ مِنَ الْجَوَارِحِ، تَحْتَمِلُ أَشْيَاءَ، وَتَعْجَزُ عَنْ أَشْيَاءَ، كَالْجِسْمِ الَّذِي يَحْتَمِلُ بَعْضُ النَّاسِ أَنْ يَحْمِلَ مِائَتَيْ رَطْلٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ عِشْرِينَ رَطْلًا، وَكَذَلِكَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي فَرَاسِخَ فِي يَوْمٍ؛ لَا يُعْجِزُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي بَعْضَ مِيلٍ فَيُضِرُّ ذَلِكَ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْكُلُ مِنَ الطَّعَامِ أَرْطَالًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُتْخِمُهُ الرَّطْلُ فَمَا دُونَهُ؛ فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ: مِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْفَظُ عَشْرَ وَرَقَاتٍ فِي سَاعَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَحْفَظُ نِصْفَ صَفْحَةٍ فِي أَيَّامٍ، فَإِذَا ذَهَبَ الَّذِي مِقْدَارُ حِفْظِهِ نِصْفُ صَفْحَةٍ يَرُومُ أَنْ يَحْفَظَ عَشْرَ وَرَقَاتٍ تَشَبُّهًا بِغَيْرِهِ لَحِقَهُ الْـمَلَلُ، وَأَدْرَكَهُ الضَّجَرُ، وَنَسِيَ مَا حَفِظَ، وَلَـمْ يَنْتَفِعْ بِمَا سَمِعَ).

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في ((جامع بيان العلم)) رقم (٦٥٢، ٦٥٣،) والخطيب في ((الجامع)) رقم (٤٥٢)، وإسناده صحيحٌ.

(٢) ٢/ ٢١٥.

البَيِّنَةُ العَاشِرَةُ

لِكُلِّ صِنَاعَةٍ عُدَّةٌ تُقَرِّبُ نَوَالَهَا، وَتُذَلِّلُ صِعَابَهَا، وَعُدَّةُ التَّعَلُّمِ آلَةُ الْـمُتَعَلِّمِ، فَمَنْ كَانَتْ مَعَهُ الْآلَةُ بَلَغَ ذِرْوَةَ الْعِلْمِ؛ وَإِلَّا وَقَفَ دُونَهَا.

وَأَوْعَى مَقَالَةٍ بَيَّنَتْ آلَةَ الْعِلْمِ - مِمَّا طَالَعْتُهُ - مَا سَاقَهُ الـمَاوَرْدِيُّ فِي «أَدَبِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ»[1]، وَقَدْ جَعَلَهَا تِسْعَةَ أُمُورٍ - مَعَ مَا يُلَاحِظُ الْـمُتَعَلِّمَ مِنَ التَّوفِيقِ، وَيُمَدُّ بِهِ مِنَ الْـمَعُونَةِ -:

الْأَوَّلِ: الْعَقْلُ الَّذِي بِهِ تُدْرَكُ حَقَائِقَ الْأُمُورِ.

وَالثَّانِي: الْفِطْنَةُ الَّتِي يَتَصَوَّرُ بِهَا غَوَامِضَ الْعُلُومِ.

وَالثَّالِثُ: الذَّكَاءُ الَّذِي يَسْتَقِرُّ بِهِ حِفْظُ مَا تَصَوَّرَهُ، وَفَهْمُ مَا عَلِمَهُ.

وَالرَّابِعُ: الشَّهْوَةُ الَّتِي يَدُومُ بِهَا الطَّلَبُ، وَلَا يُسْرَعُ إِلَيْهَا الْـمَلَلُ.

وَالْخَامِسُ: الاكْتِفَاءُ بِمَادَّةٍ[2] تُغْنِيهِ عَنْ كُلَفِ الطَّلَبِ.

وَالسَّادِسُ: الْفَرَاغُ الَّذِي يَكُونُ مَعَهُ التَّوَفُّرُ، وَيَحْصُلُ بِهِ الاسْتِكْثَارُ.

وَالسَّابِعُ: عَدَمُ الْقَوَاطِعِ الْـمُذهِلَةِ؛ مِنْ هُمُومٍ وَأَشْغَالٍ وَأَمْرَاضٍ.

وَالثَّامِنُ: طُولُ الْعُمُرِ، وَاتِّسَاعُ الْـمُدَّةِ؛ لِيَنْتَهِيَ بِالاسْتِكْثَارِ إِلَى مَرَاتِبِ الْكَمَالِ.

وَالتَّاسِعُ: الظَّفَرُ بِعَالِمٍ سَمْحٍ بِعِلْمِهِ، مُتَأَنٍّ فِي تَعْلِيمِهِ.

---

(١) ص١٠٤.

(١) المادة: المال.

الخاتمة

قَالَ مُحَمَّدُ مُرْتَضَى بْنُ مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنِيُّ الزَّبِيدِيُّ:

رَوَى ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ ذُو الإِتْقَانِ ... فِي طُرَّةٍ مِنْ «جَامِعِ البَيَانِ»[1]

أُرْجُوزَةً تُعْجِبُ مَنْ رَآهَا ... إِلَى الإِمَامِ اللُّؤْلُئِي عَزَاهَا

مَنْظُومَةً كَالْجَوْهَرِ الْمَكْنُونِ ... وَقِيلَ عَزْوُهَا إِلَى الْمَأْمُونِ

أَوْرَدْتُهَا هُنَا لِحُسْنِ سَوْقِهَا ... لِلْغَائِصِينَ فِي بِحَارِ ذَوْقِهَا

وَنَصُّهَا مِنْ بَعْدِ حَمْدِ الله ... مُصَلِّيًا عَلَى رَسُولِ الله

اِعْلَمْ بِأَنَّ العِلْمَ بِالتَّعَلُّم ... وَالحِفْظِ وَالإِتْقَانِ وَالتَّفَهُّم

وَالعِلْمُ قَدْ يُرْزَقُهُ الصَّغِيرُ ... فِي سِنِّهِ وَيُحْرَمُ الكَبِيرُ

فَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ ... لَيْسَ بِرِجْلَيْهِ وَلَا يَدَيْهِ

لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ الْمُرَكَّبْ ... فِي صَدْرِهِ وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَّبْ

وَالعِلْمُ بِالفَهْمِ وَبِالْمُذَاكَرَةْ ... وَالدَّرْسِ وَالفِكْرَةِ وَالْمُنَاظَرَةْ

فَرُبَّ إِنْسَانٍ يَنَالُ الحِفْظَا ... وَيُورِدُ النَّصَّ وَيَحْكِي اللَّفْظَا

وَمَا لَهُ فِي غَيْرِهِ نَصِيبُ ... مِمَّا حَوَاهُ الْعَالِمُ الأَدِيبُ

وَرُبَّ ذِي حِرْصٍ شَدِيدِ الحُبِّ ... لِلْعِلْمِ وَالذِّكْرِ بَلِيدِ القَلْبِ

مُعَجَّزٌ فِي الحِفْظِ وَالرِّوَايَهْ ... لَيْسَتْ لَهُ عَمَّنْ رَوَى حِكَايَهْ

وَآخَرٌ يُعْطَى بِلَا اجْتِهَادِ ... حِفْظًا لِمَا قَدْ جَاءَ فِي الإِسْنَادِ

يُفِيدُهُ بِالْقَلْبِ لَا بِنَاظِرِهْ ... لَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إِلَى قَمَاطِرِهْ

فَالْتَمِسِ العِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبْ ... وَالْعِلْمُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْأَدَبْ

الأَدَبُ النَّافِعُ: حُسْنُ الصَّمْتِ ... فَفِي كَثِيرِ القَوْلِ بَعْضُ الْمَقْتِ

فَكُنْ لِحُسْنِ الصَمْتِ مَا حَيِيتَا ... مُقَارِنًا تُحْمَدُ مَا بَقِيتَا

وَإِنْ بَدَتْ بَيْنَ أُنَاسٍ مَسْأَلَهْ ... مَعْرُوفَةٌ فِي العِلْمِ أَوْ مُفْتَعَلَهْ

فَلَا تَكُنْ إِلَى الْجَوَابِ سَابِقَا ... حَتَّى تَرَى غَيْرَكَ فِيهِ نَاطِقَا

فَكَمْ رَأَيْتُ مِنْ عَجُولٍ سَابِقِ ... مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ بِالْخَطَاءِنَاطِقِ

أَزْرَى بِهِ ذَلِكَ فِي الْمَجَالِسِ ... بَيْنَ ذَوِي الأَلْبَابِ وَالتَّنَافُسِ

الصَّمْتُ فَاعْلَمْ بِكَ حَقًّا أَزْيَنُ ... إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مُتْقَنُ

وَقُلْ إِذَا أَعْيَاكَ ذَاكَ الأَمْرُ ... مَا لِي بِمَا تَسْأَلُ عَنْهُ خُبْرُ

---

(١) يعني في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٢٩٢-٢٩٣.

فَـذَاكَ شَـطْرُ العِلْـمِ عِنْـدَ العُلَـمَا ... كَـذَاكَ مَـا زَالَـتْ تَقُـولُ الْحُكَـمَا

إِيَّـاكَ وَالْعُجْـبَ بِفَضْـلِ رَأْيِـكَ ... وَاحْذَرْ جَوَابَ القَوْلِ مِنْ خِطَابِكَ

كَـمْ مِـنْ جَـوَابٍ أَعْقَـبَ النَّدَامَـهْ ... فَـاغْتَنِمِ الصَّـمْتَ مَـعَ السَّـلَامَهْ

العِلْـمُ بَحْـرٌ مُنْتَهَـاهُ يَبْعُـدُ ... لَـيْسَ لَـهُ حَـدٌّ إِلَيْـهِ يُقْصَـدُ

وَلَـيْسَ كُـلُّ العِلْـمِ قَـدْ حَوَيْتَـهُ ... أَجَـلْ وَلَا العُشْـرُ وَلَـوْ أَحْصَـيْتَهُ

وَمَـا بَقِـي عَلَيْـكَ مِنْـهُ أَكْثَـرُ ... مِمَّـا عَلِمْـتَ وَالْـجَوَادُ يَعْثُـرُ

فَكُـنْ لِـمَا عَلِمْتَـهُ مُسْـتَفْهِما ... إِنْ كُنْـتَ لَا تَفْهَـمُ مِنْـهُ الكَلِـمَا

القَـوْلُ قَـوْلَانِ فَقَـوْلٌ تَعْلَمُـهْ ... وَآخَـرٌ تَسْـمَعُهُ فَتَجْهَلُـهْ

وَكُـلُّ قَـوْلٍ فَلَـهُ جَـوَابُ ... يَجْمَعُـهُ البَاطِـلُ وَالصَّـوَابُ

وَلِلْكَـلَام أَوَّلٌ وَآخِـرُ ... فَـافْهَمْهُمَا وَالـذِّهْنُ مِنْـكَ حَـاضِرُ

لَا تَـدْفَعِ القَـوْلَ وَلَا تَـرُدَّهُ ... حَتَّـى يُؤَدِّيـكَ إِلَى مَـا بَعْـدَهُ

فَـرُبَّمَا أَعْيَـا ذَوِي الفَضَـائِلِ ... جَـوَابُ مَـا يُلْقَـى مِـنَ الْـمَسَائِلِ

فَيُمْسِـكُوا بِالصَّـمْتِ عَـنْ جَوَابِـهِ ... عِنْـدَ اعْـتِرَاضِ الشَّـكِّ فِي صَـوَابِهِ

وَلَـوْ يَكُـونُ القَـوْلُ عِنْـدَ النَّـاسِ ... مِـنْ فِضَّـةٍ بَيْضَـا بِـلَا الْتِبَـاسِ

إِذًا لَكَانَ الصَّمْتُ مِـنْ عَـيْنِ الـذَّهَبْ ... فَـافْهَمْ هَـدَاكَ اللهُ آدَابَ الطَّلَـبْ

إِلَى هُنَـا قَـدِ انْتَهَـى الْـمَنْقُولُ ... فَاسْـمَعْ هُـدِيتَ الرُّشْـدَ مَـا أَقُـولُ

الْعِلْـمُ أَصْـلُ الـدِّينِ وَالإِحْسَـانِ ... طَرِيـقُ كُـلِّ الْخَـيرِ وَالْجِنَـانِ

دَلَّ عَـلَى تَفْضِـيلِهِ البُرْهَـانُ ... وَسُـنَّةُ النَّبِـيِّ وَالقُـرْآنُ

هَـلْ يَسْـتَوِي الَّـذِينَ يَعْلَمُونَـا ... وَعُصْـبَةٌ بِـالْعِلْمِ يَجْهَلُونَـا

لَا تَـدْعُ إِلَّا الْعُلَـمَاءَ نَاسَـا ... لِغَـيْرِهِمْ لَا تَـرْفَعَنَّ رَاسَـا

وَهْـوَ مَـعَ التُّقَـى هُـدًى وَنُـورُ ... وَهْـوَ مَـعَ الزَّيـغ بَـذًى وَبُـورُ

فَـالْعِلْمُ إِنْ زَادَ وَلَمْ يَـزْدَدْ هُـدَى ... صَـاحِبُهُ لَمْ يَسْـتَفِدْ إِلَّا رَدَى

فَـلَا تُعَـدُّ ذَاتُـهُ فَضِـيلَهْ ... إِنْ لَمْ يَكُـنْ عَـلَى الْهُـدَى وَسِـيلَهْ

فَإِنَّـهُ كَالكِـذْبِ وَالْـخَيَالِ ... يَكُـونُ عِنْـدَ الْـخَلْقِ لِلْأَعْـمَالِ

فَحَـقُّ أَهْـلِ الْعِلْـمِ صِـدْقُ النِّيَّـةِ ... وَالِاجْتِهَـادُ فِي صَـفَا الطَّوِيَّـةِ

وَالْجِـدُّ فِي التَّقْـوَى بِخَـيْرِ سِـيرَةِ ... لِيَسْـتَقِرَّ الْعِلْـمُ فِي الْبَصِـيرَةِ

فَعِلْمُ ذِي الأَنْوَارِ فِي جَنَانِهِ ... وَعِلْمُ ذِي الأَوْزَارِ فِي لِسَانِهِ

وَإِنَّ عُنْوَانَ عُلُومِ الدِّينِ ... فِي الصِّدْقِ وَالْخَشْيَةِ وَالْيَقِينِ

وَأَفْضَلُ العُلُوْمِ: عِلْمٌ يَقْتَرِبْ ... بِهِ الفَتَى مِنْ رَبِّهِ فِيمَا يُحِبْ[1]

فَلْيَبْذُلِ الْجُهْدَ بِمَا يَزِيدُهُ ... نُورَ الْهُدَى فِي كُلِّ مَا يُفِيدُهُ

وَبِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمِّ يَنْتَقِي ... مِنْ كُلِّ فَنٍّ مَا يُفِيدُ مَا بَقِي

فَإِنَّ أَنْوَاعَ العُلُوْمِ تَخْتَلِطْ ... وَبَعْضُهَا بِشَرْطِ بَعْضٍ مُرْتَبِطْ

فَمَا حَوَى الغَايَةَ فِي أَلْفِ سَنَهْ ... شَخْصٌ فَخُذْ مِنْ كُلِّ فَنٍّ أَحْسَنَهْ

بِحِفْظِ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ ... تَأْخُذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحِ

ثُمَّ مَعَ المُدَّةِ فَابْحَثْ عَنْهُ ... حَقِّقْ وَدَقِّقْ مَا اسْتُمِدَّ مِنْهُ

لَكِنَّ ذَاكَ بِاخْتِلَافِ الفَهْمِ ... مُخْتَلِفٌ وَبِاخْتِلَافِ العِلْمِ

فَالْمُبْتَدِيْ وَالفَدْمُ لَا يُطِيقُ ... بَحْثًا بِعِلْمٍ وَجْهُهُ دَقِيقُ

وَمَنْ يَكُنْ فِيْ فَهْمِهِ بَلَادَهْ ... فَلْيَصْرِفِ الوَقْتَ إِلَى العِبَادَهْ

أَوْ غَيْرِهَا مِنْ كُلِّ ذِي ثَوَابِ ... وَلَوْ بِحُسْنِ القَصْدِ فِي الأَسْبَابِ

فَلْيَعْمُرِ العُمْرَ فَكُلُّ ذَرَّةِ ... رَخِيصَةٍ مِنْهُ بِأَلْفِ دُرَّةِ

فَيَضْبِطُ الأَوْقَاتَ بِالْمَوْقُوتِ ... مِنْ قَبْلِ سَبْقِ فِتْنَةٍ وَفَوْتِ

وَالْعِلْمُ ذِكْرُ اللهِ فِي أَحْكَامِهِ ... عَلَى الوَرَى كَالشُّكْرِ فِي إِنْعَامِهِ

فَذِكْرُهُ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ ... كَالذِّكْرِ فِي الأَحْكَامِ وَالآيَاتِ

لَكِنْ كَثِيرٌ أُغْفِلُوا بِالْعِلْمِ ... وَحُكْمِهِ عَنْ رَبِّهِ ذِي الْحُكْمِ

وَأَدْخَلُوا فِيهِ الْجِدَالَ وَالمِرَا ... فَكَثُرَتْ آفَاتُهُ كَمَا تَرَى

فَصَارَ فِيهِمْ حَاجِبًا لِنُورِهِ ... عَنْهُ فَمَا ذَاقُوا جَنَى مَأْثُورِهِ

فَهَلَكُوا بِقَسْوَةٍ وَكِبْرِ ... وَحَسَدٍ وَعَجَبٍ وَمَكْرِ

نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الخَبَالِ ... وَالعَوْدِ بَعْدَ الحَقِّ فِي الضَّلَالِ

فَالذَّمُّ مِنْهُمْ لَا مِنَ العُلُومِ ... فَإِنَّهَا مِنْ طَلْعَةِ القَيُّومِ

فَحَقُّ مَنْ يَخْشَى مَقَامَ رَبِّهِ ... أَنْ يَعْتَنِي بِعَيْنِ مَعْنَى قَلْبِهِ

---

(١) في الحاشية بخط النَّاظم: ((بالحاء المهملَة، وبالجيم))؛ إشارةً إلى جواز الوجهين فالأوَّل من الحُبِّ، والثَّاني من الوجوب.

وَلْيَجْتَهِدْ بِكُلِّ مَا فِي دِينِهِ ... يَزِيدُهُ بِالْحَقِّ فِي يَقِينِهِ

وَأَنْ يُدِيمَ الذِّكْرَ بِالإِمْعَانِ ... وَالفِكْرَ فِيهِ فِي جَمِيعِ الشَّانِ

لِيَغْرِسَ التَّحْقِيقَ بِالْيَقِينِ ... فِي قَلْبِهِ بِالْحَقِّ وَالتَّمْكِينِ

حَتَّى يَكُونَ عِنْدَ مَوتِ جِسْمِهِ ... حَيَّ الحِجَا بِنُورِهِ وَعِلْمِهِ

طُوبَى لِمَنْ طَابَ لَهُ فُؤَادُهُ ... بِالْعِلْمِ وَالتَّقْوَى عَلَيْهِ زَادُهُ

فَسَارَ فِي الحَقِّ عَلَى طَرِيقَهْ ... بِالْحَقِّ تَهْدِيهِ إِلَى الحَقِيقَهْ

عَلَى اتِّبَاعِ المُصْطَفَى مَبْنِيَّهْ ... فِي القَوْلِ وَالفِعْلِ وَعَقْدِ النِّيَّهْ[1]

هذا آخر البيِّنة، وتمام المعاني المبيَّنة

---

(١) انظر: ((ألفيَّة السَّند)) للزَّبيديِّ ص ٢٨٣-٢٩١/ ط البشائر، مع مقارنتها بطبعة ابن عزوز ص ١٦٣-١٦٧، ملاحظًا ما قوَّمته من نشرتها مُجريًا عليهما قلم الإصلاح.